

سارتر كما عرفت

بقلم سيمون دوبوفوار



صدر اخيرا في باريس كتاب هام للمؤلفة الوجودية الكبيرة سيمون دوبوفوار بعنوان « مذكرات فتاة رصينة » وفي هذا الكتاب فضل طلي عبرت فيه الكاتبة عن ارائها بجان بول سارتر حين عرفت عليه وقبل ان يصبح زوجها .

ونشر « الاداب » فيما يلي هذا الفصل الهام من الكتاب الذي يصدر في الشهر القادم عن دار العلم للملايين مترجما الى اللغة العربية .



او كلمة او انفعال او فكرة مسبقة ، ولا يتركه قبل ان يستوفي اسبابه ومسبباته ومختلف معانيه . ولم يكن يتساءل عما كان يجب التفكير به ، او ما كان التفكير به نافذا او ذكيا ، وانما كان يهمله . ما كان يفكر به في الواقع . وكان يثير دائما اهتمام الاشخاص الذين لم يكونوا ينفرون من الجدة ، لانه لم يكن يقع في « الطابعية » لعدم تكلفه الابتكار . وكان ذهنه العنيد الساذج يلتقط الاشياء في ذروة حيويتها وتدققها . وما كان اضيق عالمي الصغير ازاء هذه الدنيا الفنية ! ولقد استشعرت مثل هذه المذلة ، فيما بعد ، حين رايت بعض المجانين الذين كانوا يبحثون في برعم زهرة علما معقدا من المؤامرات المظلمة !

وكنا نتحدث عن اشياء كثيرة ، وخصوصا عن موضوع كان اكثر ما يثير اهتمامي : انا نفسي . لقد كان الآخرون ، حين يحاولون شرحي ، يلحقونني بعالمهم . ومن اجل هذا كانوا يغيظونني . اما سارتر فقد كان يحاول على العكس ان يوضعني في نظامي بالذات . فكان يفهمني على ضوء قيمي ومشاريعي . وقد استمع الي بغير حماسة حين رويت له قصتي مع « جاك » . لقد كان عسيرا على امرأة ربيت على شاكلتي ان تتجنب الزواج : ولكن سارتر لم يكن يرى في الزواج شيئا عظيما . ومهما يكن من امر ، فقد كان علي ان احفظ في نفسي بكل ما كان موضع الاحترام في نفسي : حبي للحربة وللحياة وفضولي وارادة الكتابة . وهو لم يكن يتسجعي في هذا المشروع فحسب ، بل اقترح ان يساعدني فيه . وكان يكبرني بعامين - افاد منهما كثيرا - فكان اعلم علي مني بكل شيء . ولكن تفوقه الحقيقي الذي كان يبرز لعيني انما كان يكمن في هذه الحماسية الهادئة المزنزة التي كانت تدفعه نحو تلك الكذب التي كان ينوي تاليفها . لقد كنت احسبني شاذة

حين بشرني سارتر على باب « السوربون » بساني نجحت في امتحان « الاغريغاسيون » اضاف يقول : « ابتداء من الان ، سأتعهد امرك بنفسي » . وكان يميل الى الصداقات النسائية . وحين لمحته للمرة الاولى في « السوربون » كان يرتدي قبعة ويتحدث بلهجة حيية مع فتاة طويلة خفيفة كنت اجدها قبيحة جدا ، وسرعان ما تخلى عنها ، وارتبط بفتاة اخرى اجمل منها . ولكنها كانت توقعه في الارتباك ، فما لبث ان اختصم معها . وحين حدثه « هيربو » عني ، ابدى رغبته في معرفتي . وها هو ذا الان مسرور جدا بان يتمكن من الاستئثار بي . اما انا ، فيخيل الي الان ان جميع الاوقات التي لم اقضها معه كانت اوقانا ضائعة . وفي الايام الخمسة عشر التي استغرقها الاستعداد لامتحان الشفهي لم نفترق الا للنوم . وكنا نقعد السوربون لنقدم الامتحان ونستمع الى دروس زملائنا . وكنا نخرج مع « نيزان » وزوجته ، ونشرب الخمر في « بالزار » مع « ارون » و « بولينزر » الذي كان قد تسجل في الحزب الشيوعي . وكنا غالبا ما ننزله معا . وكان سارتر يشتري لي ، عند ارسفة السين ، الكتب التي كان يفضلها ، ويصحبني مساء لمشاهدة افسلام « الكوبوي » التي كنت احبها . ونجلس على ارسفة المقاهي لنحدث ساعات طويلة .

وكان « هيربو » قد وصفه لي بقوله « انه لا ينقطع عن التفكير » ولكن هذا لم يكن يعني انه يفرز في كل لحظة اقوالا ونظريات . فقد كان يكره التحذلق كرها شديدا ، ولكن ذهنه كان متيقظا ابدا . كان جهل الخدر والتعاس والفرار والهدنة والحذر والاحترام . وكان يهتم لكسل شيء ولا يعتبر اي شيء مبتوتا بامره . وكان اذا ما واجه شيئا ينظر اليه بصراحة بدلا من ان يتجنبه لسالمح خرافة

لاني لم أكن أتصور أن أعيش من غير أن أكتب . أما هو فلا يعيش الا ليكتب .

وبكل تأكيد ، لم يكن معولا على أن يعيش حياة مكتب ، فقد كان يكره الروتين والتدرج والاعمال والبيوت والحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة . وهو لا يكاد يهضم فكرة أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون ابدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا . لقد كان يحلم في ذلك العهد الرومانتيكي وفي اعوامه الثلاثة والعشرين بالرحلات الكبيرة : فيؤاخي الحمالين في مرفأ القسطنطينية ، ويثمل مع الناس في المقاهي الرخيصة ، ويظوف حول العالم فلا يلقى من يحافظ معه على سره . انه لن يزرع جذوره في أي ارض ، ولن يربك نفسه بأي شيء يمتلكه : وليس ذلك لكي يظل على استعداد ، من غير جدوى ، بل من أجل أن يظل شاهدا على كل شيء . ان جميع تجاربه يجب ان تفيد كتبه ، وقد كان يبعد بلا هوادة كل تجربة قد تنقص من قيمة هذه الكتب . وقد تناقشنا هنا طويلا . فقد كنت معجبة ، نظريا على الأقل ، بخرق القوانين الموضوعية والحيوات الخطرة والبشر الضائعين والاسراف في شرب الكحول وتناول المخدرات وتعاطي الحب . وكان سارتر يذهب الى ان كل اسراف هو عمل مجرم حين يكون للانسان شيء يقوله . وقد كان الاثر الفني ، الاثر الادبي غاية مطلقة في نظره ، وكان هذا الاثر يحمل في

ذاته سبب وجوده ، وسبب وجود خالفه بل وحتى سبب وجود الكون كله ، ولو لم يقل هذه العبارة الاخيرة ، وان كنت اظن انه مقتنع بها . وكانت الجدالات الميتافيزيقية تدعوه الى هز كتفيه استخفافا . وكان يهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية ، ولكن عمله هو كان ان يكتب ، وكل شيء آخر يأتي في الدرجة الثانية . والحق انه كان في تلك الفترة فوضويا اكثر منه ثوريا . وكان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئا محتقرا ، ولكنه لم يكن يحتقر ان يحتقره . وكان ما يدعوه « جمالية المعارضة » يلائم كل الملاءمة حياة البلهاء والقذرين ، بل يوجبها : فلو لم يكن هناك ما يحتاج الى المكافحة ما كان الادب شيئا عظيما .

وقد وجدت صلة نسب قوية بين موقفه وموقفه . فانه لم يكن في مطامحه أي تكلف للظهور ، وانما كان يبحث عن السعادة في الادب . لقد كانت الكتب تدخل في هذا العالم العارض الى حد يرثى له ضرورة تعود فتندفق على مؤلفها ، فينبغي له ان يقول بعض الاشياء ، واذ ذلك يصبح مبررا كل التبرير . وكان على قدر كاف من الصبا ليتأثر بشأن مصيره حين كان يسمع نغم « ساكسفون » بعد ان يكون قد شرب ثلاثة اقداح من المارتيني . ولكنه كان يقبل ان يغفل اسمه لو لزم الامر : المهم ان تنتصر افكاره . لا ان تنتصر اعماله الخاصة . ولم يكن قط ليقول لنفسه انه كسان « احدا » وان له « قيمة » : بخلاف ما كان يحدث لي . ولكنه

كان يعتقد ان حقائق هامة قد انكشفت له ، وان مهمته ان يفرضها في العالم . وقد اطلعتني على مذكرات ومحادثات . وحتى بعض الفروض المدرسية ، التي كان يؤكد فيها بعناد مجموعة من الافكار كان انسجامها وجدتها يدعشسان اصدقائه . وكان قد عرض هذه الافكار بصورة منظمة بمناسبة تحقيق قامت به مجلة « لينوفيل لبتيرير » ، فبرزت منها فلسفة برمتها لم تكن لها اية علاقة بتلك التي كانوا يدرسونها اياها في السوربون :

« انه لا كبر تناقض في الفكر الا يستطيع الانسان الذي تتلخص مهمته في ان يخلق الضروري ، ان يرتفع هو نفسه الى مستوى الكائن ، شأنه في ذلك شأن العرافين الذين يتنبأون بالمستقبل لسواهم ، لا لانفسهم . ومن اجل هذا ارى في اعماق الكائن الانساني ، كما في اعماق الطبيعة ، الحزن والضجر . وليس مرد ذلك أن الانسان لا يفكر بنفسه ككائن . فالواقع انه يبذل في ذلك قصارى جهده . ومن هنا منشأ فكرتي « الخير » و « الشر » فكرتي الانسان المفكر بالانسان . وانهما لفكرتان عابثتان . وعابثة ايضا هي فكرة الحتمية التي تحاول محاولة تبعث على الفضول ان تحقق تركيب الوجود والكائن . اننا احرار الى اي حد نريده . . . ولكننا مع ذلك عاجزون . اما ما يبقى بعد ذلك ، من ارادة القدرة والعمل والحياة فليس الا ايدولوجيات عابثة . فليس هناك في أي مكان ارادة القدرة ، لان كل شيء اضعف مما ينبغي ، وجميع الاشياء تميل الى الموت . والمغامرة هي على الاخص خدعة ، اقصد ذلك الايمان بمصادفات تتحد بالضرورة . ان المغامر انسان حتمي غير منطقي يفرض في نفسه أنه حر . »

وينهي سارتر آراءه مقارنة جيله بالجيل الذي سبقه : « اننا اكثر شقاء ولكننا اجدر بالعطف والحب . »

وقد اضحكيني هذه العبارة الاخيرة . ولكنني ادركت وانا اتحدث الى سارتر غنى ما كان يسميه « نظرية العرض » التي كانت تحوي بذور آرائه عن الكائن والوجود والضرورة والحرية . واصبح بديها عندي انه سيكتب يوما كتابا فلسفيا ذا شأن . غير انه لم يكن يعتبر مهمته سيرة ، لانه لم يكن ينوي تأليف كتاب نظري وفق الاصول التقليدية . لقد كان يجب سبينوزا وستاندال على قدر المساواة ويرفض فصل الفلسفة عن الادب . ولم يكن العرض في نظره فكرة مجردة ، بل كان بعدا حقيقيا من ابعاد العالم : فمن الواجب اللجوء الى جميع مصادر الفن ليشعر القلب الانساني بهذا « الضعف » الذي كان يلحظه في الانسان والاشياء . ولقد كانت هذه المحاولة في ذلك العهد شاذة جدا ، اذ كان من المستحيل استلهايم أي طراز او أي نموذج . ويقدر ما ادعشني فكر سارتر بنضجه ، اذاني شذوذ المحاولات التي كان يعبر بها عنه ، وكان يلجأ الى الخرافة والاسطورة ليقدم

حالة التوهج . وسوف اتمكن معه من ان اقسامه كل شيء دائما .

وحين تركت سارتر في مطلع شهر آب ، كنت اعلم انه لن يخرج من حياتي بعد ابدا .

سيمون دو بوفوار

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

● ماركسية القرن العشرين ترجمة نزيه الحكيم

● منطف الاشتراكية الكبير ترجمة ذوفان فرقوط

● البديل ترجمة جورج طرابيشي

● مشروع الامل

صدر حديثا

فكرته بحقيقتها الفريدة . ولم يكن يأخذه القلق لذلك ، فان اي نجاح لم يكن على اية حال كافيا ليكون اساسا لثقتته في المستقبل . كان يعرف ما الذي يريد ان يعمل ، وكانت الحياة امامه ، وسوف ينتهي به الامر الى القيام به . ولم اكن اشك في ذلك قط : لقد كانت صحته ومزاجه الرضي يصمدان امام جميع المحن . ولا ريب في ان يقينه كان يغطي عزمًا جذريا لا بد ان يؤتي ثماره ذات يوم بطريقة ما .

كانت هذه هي المرة الاولى التي اشعر فيها بان انسانا يستولي علي فكريا . وقد كنت اقيس نفسي بسارتر كل يوم ، فأجد اني لا وزن لي ازاءه في المناقشات . وقد عرضت له ذات صباح في حديقة اللكسمبورغ ، بالقرب من نبع « مدسيس » هذه الاخلاقية المتعددة التي صنعتها لنفسي لابرر الاشخاص الذين كنت احبهم ولكني لم اكن اريد ان اشبههم ، فاذا هو يحطمها شر تحطيم . وقد كنت حريصة على هذه النظرية لانها كانت تتيح لي ان اتخذ قلبي حكما للخير وللشر . وقد جادلته وانا اتخطط طوال ثلاث ساعات ، وكان علي بعد ذلك ان اعترف بهزيمتي ، ثم انسي لاحظت في اثناء النقاش ان كثيرا من آرائي لم تكن تعتمد الا على نزعات متغرضة او على تضليل او على عناد ، وان حججي كانت عرجاء ، وان افكاري كانت مضطربة . وقد سجلت في مذكراتي « لست بعد على يقين مما افكر به ، بل لست على يقين ان كنت افكر حقا ! » واصبحت اشد ميلا لان اتعلم مني لان ابرز . على انه كان حادثا جديا ، بعد تلك السنوات من الوحدة القاتلة ، ان اكتشف اني لم اكن « الفريدة » ولا « الاولى » : وانما كنت واحدة بين الاخريات وهي فجأة غير واثقة من قدراتها الحقيقية .

بيد ان همتي لم تثبط . صحيح ان المستقبل بدا لي فجأة اشق مما كنت اتصور ، ولكنه كان كذلك اوفر واقعية واكثر ضمانا . فقد رايت حفلا محمداً يفتح امامي بمشكلاته ومهماته ومواده وآلاته ووسائل مقاومته ويحل محل امكانيات لا شكل لها . وكففت عن ان اتساءل : ماذا افعل ؟ كان امامي ان افعل كل شيء ، كل ما تمنيت في الماضي ان افعله : ان اكافح الخطأ وان اجد الحقيقة واقولها واضيء بها الدنيا ، بل وقد اساعد على تغييرها . وكنت بحاجة الى الوقت والجهد لافي ولو جزءا من الوعود التي قطعتها على نفسي : ولكن ذلك لم يكن ليرعبني . فلئن كنت لم اربح شيئا ، فان كل شيء يظل مع ذلك ممكنا .

ثم ان حظا كبيرا يوهب الان لي : انني لم اكن وحدي فجأة تجاه المستقبل . وقد كان الرجال الذين عرفتهم حتى الآن ، وتعلقت بهم — كجاك وهيربو — من غير نوعي : متحللين غين مستقرين وكان فدرا مشؤوما يلاحقهم ، وكان مسن المستحيل ان اتعاطى معهم دون تحفظ . اما سارتر فكان يستجيب اتم الاستجابة لرغبات اعوامي الخمسة عشر : كان الانسان الضئو الذي أجد فيه جميع رغباتي وقد بلفت